العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق
بعد معركة عين جالوت
١٢٦٠ - ١٢٧٠ م

أ . د . محمود سعيد عمران (*)

مات الخان الأعظم للمغول مونكو Mongka فى أغسطس عام ١٢٥٩م ، فأوقفت القوات المغولية عملياتها العسكرية فى بلاد الشام . وكان للخان الأعظم ثلاثة أخوة كبار هم قوبيلاى Kubilai وهولاكو Hulagu الذى كان يقود القوات المغولية فى بلاد الشام، وأريق بوقا Arigboga كما كان له إخوة صغار أقل أهمية. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاى لمنصب الخان الأعظم . وكان قوبيلاى فى تلك الأثناء يقود حملة عسكرية على حدود بلاد الصين ، فساندته القوات المغولية المرافقة له فى حملته ليكون خانا أعظم ، وبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة المغولية حتى سيطر على الموقف داخل العاصمة(١) .

وفى ظل هذه الأحداث انقسمت الأسرة الحاكمة المغولية إلى قسمين ، أحدهما يساند قوبيلاى والآخر يساند أريق بوقا . وانتهى الأمر باختيار قوبيلاى خانا أعظم للمغول (١٢٦٠ - ١٣٩٤م) وعندئذ انسحب هولاكو ومعه قواته إلى بلاد فارس ليراقب الأحداث فى حين ترك قائده كتبغا مع باقى القوات المغولية فى بلاد الشام . وصادف ذلك مولد دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام فكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها فى المنطقة حتى تكون جديرة بالحكم بوصفها وريثة البيت الأيوبى فى حكم مصر والشام .

وكانت بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك عندما أرسل هولاكو سفارة إلى القاهرة فى أوائل عام ١٢٦٠ م تطلب من سلطان قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

الاستسلام والخضوع للسيادة المغولية . ولكن السلطان أمر بقتل الرسل ، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين . وعلى ذلك استعد قطز للقتال فحشد قواته ، وانضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية وعساكر المغيث عمر الأيوبى حاكم إمارة الكرك (١٢٣٩ - ١٢٦١م) حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية التى قدرها البعض بحوالى عشرة آلاف مقاتل(٢) .

فى نهاية يوليو ١٢٦٠م اجتاز قطز وقواته الحدود المصرية ، وتولى قيادة المقدمة القائد بيبرس الذى نجح فى الانتصار على طلائع القوات المغولية التى كانت مرابطة فى نواحى مدينة غزة بقيادة القائد بيدرا Baidar . وعلى إثر هذه الهزيمة أرسل بيدرا إلى القائد المغولى كتبغا Kitbuqe المقيم فى مدينة بعلبك يخبره بالوقائع(٣) .

وكان أن نظم كتبغا قواته ، وكان مع القوات المغولية قوات كرجية و أرمينية ، وعناصر من مغول القفجاق(٤) ، كما كان يرافق كتبغا من البيت الأيوبى الملك السعيد صاحب الصبيبة ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص(٥). ورغم هذا كله فقد كانت القوات المغولية أقل عددًا من القوات الإسلامية . وحول أعداد القوات الأرمينية فقد ذكرت أحد المصادر الأرمينية أن عدد القوات التى أرسلها الملك الأرمنى هيثوم الأول Hethim I (١٢٢٦) - ١٢٦٩ م) كانت حوالى خمسمائة(٦) .

أما عن قوات مغول القفجاق فقد ذكر ابن عبد الظاهر أن كشافة المماليك وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركة - خان مغول القفجاق - وكانوا نجدة عند هلاون أى هولاكو . فلما وقع بينهما ، أى وقع الخلاف بين بركة وهولاكو ، كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه ، وإن لم يقدروا على ذلك يتجاوزون إلى عسكر الديار المصرية ، ويذكرون أن العدواة قد استحكمت بينهما - أى بين هولاكو وبركة - وكان عددهم فوق المائتى فارس ، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم ، وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم ، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة(٧) .

أما كتبغا فقد تقدم من بعلبك حتى وصل إلى مدينة النـاصرة ، ثـم إلى عـين جالوت التى وصلها يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨ / الثـانى من سبتمبر ١٢٦٠م . وعند عين جالوت دارت المعركة الفاصلة بين المغول بقيـادة كتبغا والمماليك بقيادة قطز ، فانكسر المغول وسقطوا بين قتلى وأسرى ، فى حـين ظل كتبغا يقاتل حتى هلك فرسه ، فوقع فى أسر المسلمين ، وحمل مقيدا بالأغلال إلى السطان فأمر بقتلـه . كمـا وقـع فـى الأسـر الملـك السـعيد الأيوبـى وقـد أمـر السلطان بقتله أيضًا . أما الملك الأشرف فقد فارق العسكر المغولى وطلـب الأمـان من السطان فأمنه ، وأقره على ما بيده وهى مدينة حمص ومضافاتها . وتقدم قطـز ودخل دمشق ظافرا(٨) .

وكان لجنكـيز خـان Jenghiz Khan أربعـة أولاد حسـب كـبر السـن هـم جوجى Juji ، وجغتاى Jagatai ، ووأوكيتاى Ogodai ، وطولوى Tului . وفى أيام جنكيز خان كان مركز الحكومة فى العاصمة قراقورم فى إقليـم منغوليـا ، أمـا بعد وفاته فقد تم نوع من التقسيم الإدارى ، فـأصبح أوكيتـاى خانـا بالإضافـة إلى إقليم منغوليا، أما جغتاى فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشـرقية منـذ عام ١٢٢٧ م، وفى سلالته التى استمرت حتى عام ١٣٧٠ م.وفيما يختص بـإقليم فـارس فقـد تـولى حكمـه هولاكـو بعـد مـوت والـده طولـوى وذلـك منـذ عـام ١٢٥٦(٩) .

أما جوجى فقد حكم القبيلة الذهبية الذى كان لون مخيماتها ذهبيًـا فعرفـت بهذا الاسم ، وقد حكـم بعـده ولـدان همـا بـاطو وعرفـت سـلالته باسـم القبيلـة الزرقاء، وحكمت جنـوب روسيا وغـرب بـلاد القفجـاق منـذ الفتـح حتـى عـام ١٣٨٠م ، والثـانى هـو أوردا Orda الـذى عرفـت سـلالته باسـم القبيلـة البيضـاء واستمرت حتى ١٤٨١ م ، وحكمت فى سيبريا وشرقى بلاد القفجاق .

ويعنينا فى هذا البحث مغول فارس ومغول القبيلة الزرقاء الذين أطلق عليهم مغول القفجاق . ويلاحظ أن كلمة القفجاق أطلقت على البلاد التى تقع إلى شمال

البحر الأسود والتى تعرف حاليًا باسم أوكرانيا ، وكان يعيش فيها فى تلك الحقبة وما قبلها عناصر البشناق Pechenegs ثم عناصر الكومان Cumans(١٠) ، وهى الأراضى التى وردت فى المصادر العربية والفارسية باسم القفجاق ، وقد أتخذ هؤلاء من مدينة سراى Sarai على نهر الفولجا عاصمة لهم (١١) .

أما مغول فارس فقد تولى هولاكو حكم بلاد فارس وأذربيجان وجزء من غربى بحر قزوين وأتخذ من مدينة شيراز عاصمة له عام ١٢٥٦م وحتى عام ١٢٦٥ ، وخلفه ابنه أباقا أو أبغا ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م ، ثم تكوادار ١٢٨٤ - ١٢٨٤ م ، وأرغون ١٢٨٤ - ١٢٩١م .

أما عن مغول القفجاق فكانوا تحت حكم بركة بن جوجى منذ عام ١٢٥٧م أى قبل معركة عين جالوت وحتى عام ١٢٦٧م ، ثم حكمها منكو تيمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠م ، وتلاه تودا منكو ١٢٨٠ - ١٢٧٨ ، وغياث الدين ١٢٩٠- ١٣١٢ م .

وإذا كان البحث يتركز على علاقة مغول فارس بمغول القفجاق بعد معركة عين جالوت ، فلتكن البداية عن العلاقة بين الخان هولاكو والخان بركة . والواقع أن توسعات هولاكو عند حدود بلاد القفجاق كانت السبب فى العداوة بين الطرفين، فقد أورد العينى إن هولاكو طمع لظروف عائلية فى التوسع فى بلاد القفجاق ، لذلك تجهز بجيشه وسار فى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥ م بعد جلوس بركه على سرير الملك ، وعندما علم بركة بذلك سار إليه بعساكره وهزمه ، وكان بينهما نهر " ترك " ، وقد جمد ماؤه لشدة البرد ، فعبر هولاكو وعساكره متخطبًا إلى بلاد بركة . وانتهى الأمر بهزيمة هولاكو وعسكره " فولوا على أدبارهم وتكردسوا فى النهر الجامد ، فانفقأ الجمد من تحتهم فغرق منهم جماعة كثيرة ، وأفلت من نجا منهم من المصاف والغرق صحبه هولاكو راجعين إلى بلادهم ، وصارت العداوة بين الطائفتين متمكنة " ، وقد لعب القائد المغولى نوغاى Nogay

الـذى أسمـاه العينـى نَوغَيْـة دورًا كبـيرًا فـى هــذه المعركــة التــى أدت إلى هزيمــة هولاكو(١٢) .

ويذكر أبو المحاسن أن الخان بركة كان يميل إلى المسلمين ميلاً زائـدًا ويعظـم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويتبرك بهــم . ووقـع بينـه وبـين ابـن عمـه هولاكـو ، وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم با لله وغيره من المسلمين(١٣) . وهكذا نشبت الحرب بين الطرفين منذ ذلك الحين ، وصارت العداوة بـين الطرفـين مورثـة(١٤) . وإذا كان العداء بين الطرفين قد ظهر قبل معركة عين جالوت بخمس سنوات فإنهـا لم تتفاقم إلا بعد موت الخان الأعظم مونكو وإنقسام الامبراطورية المغولية إلى وحـدات سياسية ، وهذا لم يتضح إلا بعد معركة عين جالوت .

وكان الخان بركة يميل إلى الإسلام والمسـلمين فـإعتنق الإسـلام فـى مرحلـة لاحقة ، وهى نقطة فى غاية الأهمية فى تاريخ العلاقات بـين الخـان بركـة والخـان هولاكو . ومسألة تحديد الزمن الذى اعتنق فيه الخان بركـة الإسـلام أمـر يصعـب تحديده بدقة ، ولكن الباحث سيحاول الوصـول إلى تـاريخ معقـول ومقبـول ، إذ يرى البعض أنه تحول للإسلام قبل اجتياج المغول لمدينة بغـداد فـى عـام ١٢٥٩م ، وأنه اعترض على التخريب الوحشى الذى ألحقه المغول بالمدينـة(١٥) ، ثـم تصـاعد الخلاف بين الطرفين بعد معركة عين جالوت ، وهو الأمر الذى دفـع الخـان بركـة إلىسحب قواته التى كانت تحارب إلى جانب قوات هولاكو فى بلاد الشام(١٦).

وحول الزمان الذى أسلم فيه الخــان بركـة فقـد سبق أن ذكرنـا أن جماعـة كبيرة من التتار مستأمنيين وفدوا إلى الباب الشريف ، أى سـلطنة المـماليك لأنهـم من أصحاب الخان بركة ، وكانوا نجده ، فلما وقع بينهمـا كتـب إليهـم بـالحضور ويعتبر طلب الخان بركة من عساكره الدخول إلى الديار المصرية أمرًا له دلالته . إذ لا يعقل أن يطلب الخان بركة من عساكره ذلك إلا إذا كانت العلاقات طيبـة بـين السلطان بيبرس والخان بركة . وحول إسلام الخان بركة ذكر العينى أنه أسلم على

يد أحد تلامذه الشيخ الباخرزى الذى إتخذ من بخارى مقرًا له ، وقد أورد ذلك فى عام ٦٥٢ هـ/١٢٥٤م ، وقال أيضًا إنه عندما ملك الخان بركة البلاد " أسلم وحسن إسلامه "(١٧) .

ولعل فى ذلك إشارات واضحة إلى إسلام الخان بركة ، ولكن إعلام الظاهر بيبرس بإسلام الخان بركة جاء بعد ذلك . فقد ذكر العينى أنه فى عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م وصلت رسل بركة خان مخبرين بإسلامه وعلى أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم أيضًا من بيوت التتار(١٨) .وعلى ذلك يمكن القول أن إسلام الخان بركة كان قبل عام ١٢٦٢م ، وأن السلطان بيبرس قد تلقاه بصورة رسمية فى عام ١٢٦٢ م .

وحول العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق يهمنا فى هذه الصفحات التعرض للطرق التى تربط بين الطرفين . ومن المعروف أنه لا يوجد طريق بين الدولتين إلا طريق بحر قزوين . وليس لدى المغول قوة بحرية فى تلك المرحلة . أما الطريق البرى فيمر من بلاد فارس إلى أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) وآسيا الصغرى حيث دولة سلاجقة الروم ، وأخيرًا الامبراطورية البيزنطية التى قامت فى المنفى وإتخذت من مدينة نيقية عاصمة لها ، والدولة اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى القسطنطينية على أنقاض الامبراطورية البيزنطية .

وفيما يتعلق بدولتى أرمينية والكرج فقد خضعتا للخان هولاكو ، واشتركت قوات الدولتين فى معارك المغول ضد المسلمين ، فى معركة عين جالوت وغيرها من المعارك ، خاصة التى دارت فى أعالى بلاد بلاد الشام والفرات. كذلك كانت دولة سلاجقة الروم فى طاعة هولاكو . ويذكر ابن العبرى أن هولاكو أرسل قبل معركة عين جالوت فى طلب السلطان عز الدين وأخيه ركن الدين ليذهبا إلى خدمته فأطاعاه . وطلب من الأخوين بأن يتولى عزالدين من مدينة قيصرية فى آسيا الصغرى إلى تخوم أرمينية ، وركن الدين من

مدينة أقسرا حتى ساحل البحر بحدود الامبراطورية البيزنطية .. وعاد الأخوان مسرورين وأتخذ ركن الدين مدينة سبسطية عاصمة له ، وأقام عز الدين فى قونية ، ووضع هولاكو قوات مغولية لترابط فى أراضى سلاجقة الروم(١٩) .

وعلى هذه الصورة لم يتبق فى آسيا الصغرى خارج سلطان هولاكو سوى الامبراطورية البيزنطية فى نيقية ، وعلى الطرف الآخر القسطنطنية حيث كان اللاتين يحكمون بقية الأراضى البيزنطية بعد ما سقطت فى أيديهم منذ عام ١٢٠٤م على أيدى قوات الحملة الصليبية الرابعة .

* * *

وقد استفاد الظاهر بيبرس من الخلافات التى وقعت بين مغول فارس ومغول القفجاق ، حتى أنه يمكن القول بأن فكرة التقارب بين مغول القفجاق ودولة المماليك ظهرت فى تلك المرحلة . ولكن مثل هذا التقارب لم يكن وضعه على أرض الواقع بين الطرفين لأن الطريق البرى بين بلاد الشام ومغول القفجاق تقطعه الدول المتحالفة مع مغول فارس . هذا إلى أن الطريق البحرى عبر بحر مرمرة كان يتحكم فيه اللاتين الذين يحكمون فى القسطنطينة . ولكن الظروف هى التى خدمت هذه القضية ، ففى عام ١٢٦١ م نجح الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaiologos (١٢٥٨ - ١٢٨٢م) فى القضاء على امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الحاجز البحرى الوحيد بين دولة القفجاق ودولة المماليك هو بحر مرمرة الذى يقع تحت سلطان الامبراطورية البيزنطية .

والواقع أن العلاقات بين الظاهر بيبرس والامبراطور ميخائيل أصبحت طيبة منذ عام ٦٦٠هـ - ١٢٦١م على الأقل . وهناك العديد من الأمثلة على حسن العلاقة بين الطرفين ، ومن ذلك أنه فى عام ١٢٦١م وصلت كتب الامبراطور ميخائيل " وهو يقسم أنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ، ساعدت بكل ما تقدر سلطنتى عليه " . وقد رد السلطان عليه وأرسل إليه هدية " منها الزرافات وجماعة من التتار الأسارى بخيولهم التترية وعدتهم "(٢٠) .

ويتضح من النصوص أن هذه الأحداث وقعت قبل إنتقال الامبراطور من مدينة نيقية إلى القسطنطينية ، فقد ذكرت المصادر أن الأمير فارس الدين أقوش المسعودى كان قد توجه رسولاً إلى الامبراطور ميخائيل الذى طلب من السلطان بيبرس أن يرسل إليه بطرقا للنصارى الملكانيين ، فعين السلطان الرشيد الكحال لذلك ، وأرسله فى صحبة الأمير فارس الدين ١٢٦٠م . فأكرمه الامبراطور وأكرم من فى صحبته من الأساقفة . وتصادف وصول هذه الجماعة من قبل السلطان بيبرس مع فتح الامبراطور للقسطنطينية ، واصطحب الامبراطور السفارة المصرية لمشاهدة المدينة ، ثم عبروا على مكان به مسجد يبدو أنه مسجد أبو أيوب الأنصارى - فأبقى الامبراطور عليه ليكون ثوابه للسلطان(٢١) . وهكذا غدا الطريق مفتوحًا أمام حسن العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ، مما جعل إقامة تحالف بين الدولتين أمرًا يسهل تحقيقه .

والواقع أن الرسل والمراسلات نشطت بين الطرفين . وهناك العديد من الأمثلة على ذلك(٢٢) . والذى يعنينا فى هذا البحث هو ما سجل عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م عن وصول رسل من الامبراطور البيزنطى ، ورسل سلطان سلاجقة الروم ، ورسل الخان بركة إلى أبواب سلطنة المماليك . وهذا كله يؤكد حسن علاقة الظاهر بيبرس بهذه الدول وحكامها ، وما ترتب عليها من آثار فى العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق .

وسوف نركز فى هذه السطور على الكتب التى أرسلها الخان بركه إلى السلطان ، وقد ورد بها " السلام والشكر وطلب الأنجاد على هلاون " هولاكو " والإعلام بما هو عليه من مخالفة شنكرخان " جنكيز خان " وشريعة أهله ، وأن كل ما فعله من اتلاف النفوس بطريق العدوان منه ، وأننى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة قربة من سائر الجهات لإقامة منارة الإسلام وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت علبه من العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة".

ثم التمس الخان بركه من السلطان بيبرس " إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هلاون ، ويوصى على السلطان عز الدين [سلطان سلاجقة الروم] ويستمد مساعدته "(٢٣) .

ويتضح مما سبق عدة أمور أهمها ، أن الحرب كانت قائمة بين مغول فارس ومغول القفجاق ، وأن هناك ترابط وتفاهم واتفاق تام بين زعماء مغول القفجاق المسلمين لمحاربة هولاكو فى جميع الجبهات لرفع راية الإسلام . والأمر الثانى هو طلب الخان بركه إقامة تحالف عسكرى بين المماليك فى مصر والشام ومغول القفجان يتم بموجبه قيام الجيش المملوكى بقطع الطريق على قوات مغول فارس فى جهة الفرات ، وهو الطريق الذى يتقدمون منه لمهاجمة مغول القفجاق . والأمر الثالث هو قيام السلطان بيبرس بالتوسط بين الخان بركه وبين عز الدين الذى يحكم بلاد سلاجقة الروم مع أخيه ركن الدين(٢٤) ، لأن دولة سلاجقة الروم كانت خاضعة للخان هولاكو وبها حاميات من مغول فارس(٢٥) ، وإذا ما أنضم سلاجقة الروم إلى جانب الخان بركه ضد هولاكو يكون ذلك فى مصلحة دولة مغول القفجاق ودولة المماليك جميعًا .

وكان أن أكرم السلطان بيبرس سفراء الخان بركه ، وأعادهم ومعهم رسل من قبله محملين بالهدايا . يضاف إلى ذلك أن بيبرس طلب أن يُدعى للخان بركه بعد الدعاء له فى مساجد مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف . وأرسل السلطان عُمرة إلى مكة نيابة عن الخان بركه(٢٦) . وعلى أية حال ، فالعداء بين بيبرس وهولاكو قائم ، والعداء بين الخان بركه وهولاكو قائم ، كما أن الظاهر بيبرس يرجع أصله إلى بلاد القفجاق وهى بلاد الخان بركه(٢٧) .

ولم يلبث الحلف الذى تم بين بركه والظاهر بيبرس إن دخل حيز التنفيذ ، ففى جمادى الأولى من عام ٦٦٢هـ / مارس ١٢٦٤م وصل إلى السلطان بيبرس فى مصر جماعة من عربان خفاجه ، وذكروا أنهم يغيرون على التتار ، وإن غاراتهم تصل إلى أبواب بغداد والبصرة ، كما أخبروا السلطان بأخبار مدينة شيراز، وقد أكرمهم السلطان وأنعم عليهم(٢٨) .

كذلك اهتم السلطان بيبرس بمعابر الفرات التى تؤدى إلى بلاد الشام ، فطلب من نائب حلب أن يتوجه إلى هذه المناطق حيث نهر الساجور ، ويقيم بمن معه من عسكر حلب ويحفظ معابر الفرات لئلا يعبرها أحد من التتار قاصدًا الشام(٢٩) .

واستهدفت سياسة بيبرس تدمير المناطق إلى يلجأ إليها مغول فارس إذا ما قدموا إلى حلب سواء للإغارة أو لشق طريقهم إلى بلاد القفجاق . من ذلك أنه كتب إلى النواب بحلب بإحراق الأعشاب ، كما سير جماعة إلى مدينة آمد ومواضع الأعشاب التى اعتادت قوات مغول فارس نزولها إذا ما وصلوا إلى حلب، وقد تم إحراق هذه الأعشاب لمسافة مسيرة عشرة أيام إلى أن صارت رمادًا ، وتم ذلك أيضًا فى أعشاب مدينة خلاط(٣٠) .

ومن ناحية أخرى فإن الحرب بين بركة وهولاكو لم تتوقف كما تطالعنا النصوص ، فقد ورد أن قوات بركه انتصرت على قوات هولاكو عدة مرات فى البر والبحر(٣١) . ولعل المقصود هنا بكلمة البحر نهر الفرات . وقد أدى ذلك إلى توقف التجارة فى تلك المناطق وتعرض العديد من التجار للنهب والقتل . وكان فى ذلك فرصة طيبة لدولة المماليك التى تسيطر على مياه شرق البحر المتوسط(٣٤) . ويتضح من ذلك أن تحالف الخان بركه مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو قد نجح تمامًا ، وأن الخان بركه كان بعيد النظر عندما تحالف مع الدولة المملوكية ، هذا التحالف الذى عاد على المماليك ومغول القفجاق بفوائد كثيرة .

وفى تلك الأثناء ، ظل السلطان الظاهر بيبرس يراقب حركات مغول فارس " محترزًا من مكائدهم ، أخذا بالحزم فى أمورهم ، وقصاده لا تنقطع من بغداد وخلاط وغيرهما من بلاد الشرق ... " وكان يبعث بالكشافة - أى الجواسيس - لاستطلاع أمورهم" وأمسك من وسط التتار ناسًا أخذ الأخبار منهم..."(٣٢).

أما عن العلاقات بين الخان بركة والظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل فقد ظلت طيبة ، ولكن صفو العلاقات بين الخان والإمبراطور تعكر لبعض الوقت، وذلك بسبب اعتداء قوات مغول القفجاق على الأرضي البيزنطية . وقد أدى ذلك إلى منع الإمبراطور لرسل الظاهر بيبرس من التوجه إلى بلاد القفجاق مما أثار غضب الظاهر بيبرس ، واعتبر أن الإمبراطور قد نكث بوعوده ، " فأخرج أيمان الأشكرى (الإمبراطور ميخائيل) وقال قد نكث بإمساك رسلى ومال إلى جهة هولاكو " ، وأرسل بيبرس إلى الإمبراطور يقول : " إن كان إمساك رسلى فساد حالك مع الملك بركة ، وكون عساكره أفسدت فى بلادك ، فأنا أصلح الحال بينك وبينه ، كما كتب إلى خان بركة بذلك أيضًا "(٣٣) .

ويبدو أن السبب الرئيسى لتوتر العلاقات بين الخان والإمبراطور يرجع إلى التقارب الذى تم بين الإمبراطور وهولاكو ، فقد رأى الأخير أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية فى غاية الأهمية لضرب مغول القفجاق وإيجاد نوع من التوازن السياسى والعسكرى فى آسيا الصغرى . لذلك أرسل هولاكو إلى الإمبراطور يطالب بزوجة له بعد موت زوجته النسطورية طقز خاتون(٣٤) . وقد وافق الإمبراطور على طلبه وشرع فى إرسال ابنة غير شرعية له هى ماريا Marie ، وقبل أن تصل ماريا إلى بلاط المغول فى فارس مات هولاكو، فتزوجت من ابنه أبغا (١٢٦٥ - ١٢٨١م) ، وعرفت فى البلاط المغولى باسم دسبينا خاتون Despina Khatun . وقد وجد المسيحيون فيها حامية جديدة للمسيحية بعد رحيل طقز خاتون ، وأجلها المسيحيون والمغول لما اشتهرت به من حب الخير والحكمة(٣٥) .

وفى تلك الأثناء وصل رسل الظاهر بيبرس الذين أوفدهم للتوسط فى الصلح بين الخان بركة والإمبراطور ، إلى العاصمة البيزنطية ، وعادوا ومعهم كتاب من الإمبراطور يتضمن رجوعه عن رأيه فى معاداة مغول القفجاق ، وأنه

أقسم على ذلك . ويضيف الإمبراطور أن سبب تأخره فى الرد على السلطان هو وفاة الخان بركه . كما طلب استمرار الصلح مع الظاهر بيبرس ، وسأله أيضًا الدخول فى الصلح مع أبغا بن هولاكو ، بعد أن أقر الصلح مع بيت بركه . وقد رد الظاهر بيبرس على الإمبراطور بالموافقة على طلب الصلح ، عدا الصلح مع أبغا وقال : "وأما أبغا فماله إلا السيف ، وهو مطلوب منا بثأر المسلمين"(٣٦) .

ويرى البعض أن من أسباب التوتر بين هولاكو والإمبراطور والخان بركه ، ما حدث عام ١٢٦٢م ، ففى أواخر صيف هذا العام تأهب عز الدين سلطان قونيه للقدوم لخدمة هولاكو لأن السفراء كان يلحون عليه فى ذلك . ولما ضرب عز الدين خيامه خارج مدينة قونيه استعدادًا للرحيل جاء من يخبره أن أخاه ركن الدين والقائد المغولى فى تلك النواحى سوف يقيدونه بالسلاسل ويذهبا به إلى ملك الملوك هولاكو . ولما سمع عز الدين خاف وترك خيامه وأخذ أهل بيته واتجه إلى الإمبراطور ميخائيل(٣٧) . ويضيف آخرون أن السبب الرئيسى يرجع إلى أن عز الدين سلطان قونيه الذى أقامه هولاكو أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يذكر فيها أنه تنازل له عن نصف بلاده . وقد وافق الظاهر بيبرس وشرع فى تجهيز نجدة للسلطان عز الدين . ثم وصل كتاب آخر من عز الدين إلى الظاهر بيبرس يخبره فيه أن قوات هولاكو علمت بما تم الاتفاق عليه بينه وبين سلطان مصر ، فخاف وولى هاربًا(٣٨) .

وإزاء هذا التوتر الذى ساد آسيا الصغرى وأعالى الشام وبلاد القفجاق لم يكن أمام الإمبراطور البيزنطى وهو الدبلوماسى البارع إلا التصرف بسرعة للحفاظ على عرش الإمبراطورية الذى استعاده بقوة السلاح وسط محيط هائل من العداء شمل كل دول المنطقة التى تمتد من بلاد فارس شرقًا حتى أوربا غربًا . لذلك بدأ الإمبراطور فى تغيير سياسته وعمل على مزيد من التقارب مع مغول القفجاق وعرض زواج إبنته من الأمير نوغاى Nogai الوزير الأول فى دولة مغول القفجاق وقائد قواتها(٣٩) .

ومما لا شك فيه أن هذا التصرف أغضب هولاكو علاوة على غضبه من إيواء الإمبراطور للسلطان عز الدين . ويبدو أن الإمبراطور أراد إرضاء الخان هولاكو فعرض عليه الزواج من إحدى بناته فوافق هولاكو على ذلك ، ومن الواضح أيضًا أن السلطان عز الدين خاف من غدر الإمبراطور به فأرسل إلى الخان بركه يخبره سرًا بذلك ، فعرض الخان بركه استضافته فسافر عز الدين متخفيا إليه(٤٠) ، وقد منحه حكم منطقة القرم(٤١) .

والحقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت فى وضع حرج للغاية منذ استعادة الإمبراطور ميخائيل لعرش الإمبراطورية . ذلك أنه ظهرت فى غرب أوربا حركة لاستعادة الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وساند هذه الفكرة البابا أوربان الرابع Urban (١٢٦١ - ١٢٦٤م) الذى وعد فى عام ١٢٦٢م بتقديم عرش صقلية وجنوب إيطاليا إلى شارل أف أنجو Charles of Anjou (١٢٦٦-١٢٨٥م) أخ الملك لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٠م) . وقد ناصب شارل الإمبراطورية البيزنطية العداء لإرضاء البابوية التى أخذت تطالب الإمبراطور ميخائيل بتنفيذ وعده وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية(٤٢) .

وفى الوقت نفسه كان هولاكو يسعى للتحالف مع الغرب الأوربى لضرب دولة المماليك واستعادة القدس ، وفى هذا ما يزعج الظاهر بيبرس . وكان بيبرس يعلم أن البيزنطيين ليس لديهم رغبة فى إتمام مثل هذا التحالف الذى سيعرضهم للخطر . كما أن الغرب الأوربى نادى بحملة صليبية فى عامى ١٢٦٣ - ١٢٦٤م ضد مغول القفجاق لقيامهم بغزو بولندا . وكان الأرمن والمسيحيون النساطرة يرون أن المغول هم إرادة الله لتدمير القوى الإسلامية ، وقد قام النساطرة الذين كانوا فى دولة مغول فارس بجهود جبارة من أجل إتمام هذا التحالف(٤٣) .

وفى حوالى عام ١٢٦٣م أرسل هولاكو أول سفارة إلى البابا ، وكانت هذه السفارة بداية لسلسلة من الاتصالات الدبلوماسية المتبادلة بين خانات فارس

والغرب الأوربى استمرت حوالى أربعين عامًا حتى دخل مغول فارس فى الديانة الإسلامية(٤٤) .

ومما لا شك فيه أن أنباء تقارب الغرب الأوربى مع هولاكو أزعج منطقة الشرق الأدنى الإسلامى ، خاصة أن المغول اقترحوا هجومًا مغوليا على مصر ، وأنهم سوف يقدمون القدس للصليبيين ، هذا إلى أن تقدم القوات الصليبية كان فيه إزعاج كبير للإمبراطورية البيزنطية التى باتت تخشى على نفسها تكرار الحملة الصليبية الرابعة . ومع موت الخان هولاكو فى عام ١٢٦٥م ، والخان بركه فى العام التالى ١٢٦٦م ، ظهر شبه تحالف بين مغول القفجاق ودولة المماليك والإمبراطورية البيزنطية من جانب ضد خانات فارس والإمارات الصليبية والغرب الأوربى من جانب الآخر ، رغم التصاهر الذى تم بين الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن وبين أبغا خان مغول فارس .

أما عن التحالف الثلاثى فقد استهدف شق صفوف الغرب الغرب الأوربى بعامة وبين جنوة والبندقية بخاصة ، حتى لا يدخل التحالف بين أوربا وبين مغول فارس حيز التنفيذ ، لأن هذا التحالف سوف يدخل منطقة الشرق الأدنى فى صراع يعود بالضرر على الأطراف كلها . وخطط ميخائيل باليولوج لضرب الترابط الأوربى رغم أنه كان واهيًا ، عن طريق بذر الشقاق بين جنوة والبندقية ، فى ضوء ما كان بينهما من صراع قديم ومتكرر ، خاصة أن هذا الصراع قد تجدد فى عام ١٢٦٥م فى مدينة عكا الصليبية ، وهى الحرب المعروفة باسم حرب القديس سابا Saint sabas وقد استمرت هذه الحرب لأكثر من خمس سنوات هزم خلالها الجنوية فى معركة بحرية عام ١٢٥٨م ، ولم يتم الصلح بينهما رغم توسط البابوية حتى عام ١٢٦١م(٤٥) .

وقد استغل الإمبراطور هذه الفرصة ، ووجد أن البندقية تعتبر دعامة قوية للصليبيين ، وأنها هى التى قادت الحملة الصليبية الرابعة وأسقطت الإمبراطورية ،

لذلك بدأ فى التقرب إلى دولة جنوة المنافسة الأولى لدولـة البندقيـة ، وعقـد معهـا معـاهدة فـى الثـالث عشـر مـن مـارس ١٢٦١م عرفـت باسـم معـاهدة نيمفـايون Nymphaion نسبة إلي المنتجع الذى كان الإمـبراطور يقضـى فيـه فصـل الشـتاء . وبموجب هذه المعاهدة تم التحـالف بـين جنـوة وبيزنطـة ضـد البندقيـة ، ووضعـت جنوة خمسين سفينة تحت تصرف الإمبراطورية لمقاومة سفن البندقية ، كما منحـت جنوة كل الامتيازات التجارية التى كانت ممنوحة للبنادقة من قبل ، وأصبح للتجار الجنويين حق التجارة المعفاة من الضرائب فى كل موانئ الإمبراطوريـة وفـى البحـر الأسود أيضًا . وقد تعاملت جنوة بالذات فى تجـارة الرقيـق والسـلع الأخـرى مـع مصر ومغول القفجاق(٤٦) .

ورغـم المتاعب اللاحقة لهذه الاتفاقية بين البنادقة والإمبراطور ميخائيل الـذى أتهم البنادقة بالتـأمر عليـه مـع مـا نفـرد Manfred ملـك صقليـة وجنـوب إيطاليـا ١٢٥٨- ١٢٦٦م ، فـإن سـفن الجنويـين عـززت وجودهـا فـى البحـر الأسـود . وسارت هذه السفن بصفة دائمة عبر مضيقى البسفور والدردنيل لتصـل إلى موانـى الشام ومصر . ومن خلال هذا الاتصال فإن ثروة مغول القفجـاق ازدهـرت رغـم محاصرة مغول فارس للطريق البرى . ويتضح من ذلك أن هذا الاتصال التجارى لم يكن يتم طالما بقيت القسطنطينية فى أيدى اللاتين(٤٧) .

ولم يسلم مغول فارس من تهديد أعدائهم المنافسين ، فقد استمرت الحـرب بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد مـوت هولاكـو عـام١٢٦٥م والخـان بركـه عام ١٢٦٦م . ورغم أن مغول فارس نجحوا فى الحفاظ على أراضيهم إلا أنهـم لم يتمكنوا من التوسع بعد ذلك فى جهة الغرب بعامة ، كما أنهـم فشـلوا تمامًـا فـى السيطرة على بلاد الشام بخاصة .

والواقع أن مغول فارس كانوا يحاربون على جبهتين ، جبهة مغول القفجـاق وجبهة بلاد الشام . وكان خانات مغول فارس يـأملون فـى التحـالف مـع الغـرب

الأوربى ولذا وأطلقوا العديد من السفارات إلى الباباوية وإلى حكام أوربا من أجل إقامة هذا التحالف . ولكن أوربا التى كانت متمثلة فى إنجلترا وفرنسا بعد ضعف الإمبراطورية الرومانية المقدسة بوفاة الإمبراطور فريدريك الثانى Fredrick II عام ١٢٥٠م كانت تهتم بمشاكلها الداخلية أكثر من الاهتمام أكثر بالقضية الصليبية والتحالف مع المغول . هذا إلى أن أوربا لم تنس هجوم المغول الوحشى عليها وكانت تخاف من تقدم المغول مرة أخرى . يضاف إلى ذلك أن أوربا سبق إن توهمت أن مغول فارس سوف يتحولون إلى الديانة المسيحية ولكن هذا لم يحدث .

ومن جانب آخر تطلع شارل أف أنجو إلى قيادة حملة صليبية ضد القسطنطينية وإسقاط الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى . لذلك لم يكن لدى شارل النية فى الصراع مع الظاهر بيبرس أو مهاجمة أملاكه فى مصر أو الشام . ويرى البعض أن شارل أقنع أخاه الملك لويس التاسع بأن يتوجه بحملته الصليبية إلى تونس فى عام ١٢٧٠م ، وليس إلى مصر كما حدث فى عام ١٢٥٠م .

وكان للإمبراطور ميخائيل باليولوج أهمية عظمى فى الصراع الذى دار بين مغول فارس ومغول القفجاق ، فقد كان كل ما يعنيه هو استمراره على عرش الإمبراطورية ، كما إن الإمبراطورية لم تنس ما فعله الغرب الأوربى عندما أسقطوا الإمبراطورية عام ١٢٠٤م ، ولذا فإنه كان عدوا لدودا للغرب الأوربى ، وكان ذلك كافيا للظاهر بيبرس ، كما أن تحالف الإمبراطور مع مغول القفجاق كان سندا قويا له .

وحقيقة الأمر أن مغول فارس كان بوسعهم الانتقام لهزيمتهم فى معركة عين جالوت والانتصار على دولة المماليك الناشئة فى مصر ، وذلك إذا كانت دولة المغول قد استمرت موحدة ، وإذا كانت الحكومة اللاتينية قد استمرت مسيطرة على القسطنطينية . ولكن طرد الإمبراطور اللاتينى بلدوين الثانى Baldwin II عام

١٢٦١م سهل كثيرًا من مهمة السلطان بيبرس فى الدفاع عن الشام ومصر ضد مغول فارس .

* * *

وفى ختام هذا البحث يود الباحث أن يؤكد حقيقة تاريخيه ، وهى إن المعارك لا تقاس بوقائعها وإنما تقاس بنتائجها . لقد كانت معركة عين جالوت صغيرة فى أحداثها ولكنها كبيرة فى نتائجها على إمبراطورية المغول بعامة وخانات مغول فارس ومغول القفجاق بخاصة ، وعلى دولة الكرج وأرمينية وسلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية ، ثم على الدولة المملوكية وعلى شمال أفريقية حيث قامت الدولة الحفصية فى تونس . وتطالعنا المصادر الأراجونية بأن السفارات تبودلت بين مغول فارس والملك جيمس الثانى James II ملك أراجون (١٢١٣ - ١٢٧٦م) وأن أسطول أرغوان أبحر إلى الشرق فى ما يشبه حمله صليبية للتحالف مع المغول ومحاربة المسلمين(٤٨) .

وهكذا يبدو فى ضوء النصوص أن معركة عين جالوت كانت لها نتائج على دول حوض البحر المتوسط بأكمله ، بل أنها ربما تجاوزت ذلك إلى عمق أوربا الشرقية والغربية .

الهـوامش

(١) الهمذانى ، رشيد الدين : جامع التواريخ – دار النهضة العربية – لبنان – ١٩٨٣، ص ١٥٠ – ١٥٢ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان – دار المشرق – بيروت – ١٩٨٦ – ص٣١٦ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر – ٤أجزاء – بيروت (د.ت) جـ٣ ، ص٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٣٧ .

(٥) أبو الفدا : المصدر السابق – جـ٣ ، ص٢٠٥ .

(6) Sambat, La Chronique, Paris 1980, p.106.

(٧) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٣٧.

(٨) أبو الفدا : المصدر السابق – جـ٣ – ص٢٠٥ ، ابـن العبرى : المصدر السابق ، ص٣١٧ ، ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص٦٦ .

(٩) الهمذانى : المصدر السابق – ص١٦ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ٢٥٢.

(10) John Kinamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, New York. 1976, p.65, Marco Polo, The Travels, Penguin, p.335 .

(١١) قسطنطين برونيروجنيتوس . إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران – دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٨٠ ، ص٥٣ – ٥٥ .

أبو الفدا : المصدر السابق – جـ٣ ، ص١٢٨ ، العينى : عقد الجمان – دولة سلاطين المماليك ، ص٧٦ – ابن سباط ، تاريخ ابـن سباط – طرابلس ١٩٩٣ – جـ٢ ، ص٢٧٦ ، ٥٨٥ .

الهمذانى : المصدر السابق ، ص٢٨ ، ٣٢ .

(١٢) العينى : المصدر السابق – ص١٠٨ – ١٠٩ .

(١٣) أبو الحسن : المصدر السابق – جـ٢ – ص٢٢٢ .

(١٤) الهمذانى : المصدر السابق – ص١٢٥ ، بيروت المنصورى : التحفة المملوكية – الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧ – ص٣٦ .

(١٥) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٩٢ – ١٩٣ .

(١٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٣٧ .

(١٧) العينى : المصدر السابق - ص٩٠ - ٩١ .

(١٨) العينى : المصدر السابق ص٣٦٠ .

(١٩) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣١٥ - ٣٢٥ .

(٢٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٨٨ .

(٢١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٢٩ .

(٢٢) أبو المحاسن : المصدر السابق - جـ٧ -ص٢٢٢ .

(٢٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٧٠ - ١٧١ .

(٢٤) أبو المحاسن : المصادر السابق - جـ٧ - ص٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢٥) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٢ .

(٢٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٧٤ .

(٢٧) أبو المحاسن : المصدر السابق - جـ ٧ - ص٩٤ .

(٢٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٤ .

(٢٩) أبو المحاسن : المصدر السابق - ص١٩٤ .

(٣٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٣٦ .

(٣١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٤٩ .

(32) Sanuders, Muslim and Mongols, Canterbury 1977, p.73.

(٣٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٥ - ١٩٦ .

(٣٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣٥) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣١٤ - ٣١٥ - محمود سعيد عمران - المغول وأوربا - دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ - ص٦٥ .

(٣٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣٧) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣٢٢ .

(٣٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٢٥ - ١٢٨ .

(39) Saunders, op. cit., p.73 .

(٤٠) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣٢٤ .

(٤١) الهمذانى : المصدر السابق – ص٢٠٠ .

(42) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge, 1958, pp. 68-9, 138-40

(٤٣) محمود سعيد عمران : المرجع السابق – ص٢٣٠ وما بعدها .

(٤٤) محمود سعيد عمران : المرجع السابق – ص٢٥٥ وما بعدها .

(45) Saunders, op. cit., p. 74 .

(46) Nicol, Donald. The last Centuries of Byzantium 1261 - 1453, London 1972, p.38 .

(47) Saunders, op. cit., pp. 74 - 5 .

(48) James of Aragon, The Chronicle, London 1883, II, pp. 578 ff